الباب الأول

وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال -أي جبريل عليه السلام-: صدقت. والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣].

وروى مسلم في «صحيحه» عن طاووس قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كلُّ شيء بقدر. قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس[1] والعجز»[2].

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨-٤٩]»[3].

---

(١) الكيس: ضد العجز.

(٢) رواه مسلم في كتاب «القدر» (٤/ ٢٠٤٥، ٢٦٥٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب «القدر» (٤/ ٢٠٤٦، ٢٦٥٦).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»(١).

روى أبو داود في «سننه» عن أبي حفصة الشامي قال: قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك»، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(٢).

وهذا الذي كتبه القلم هو القدر: لما رواه ابن وهب قال أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه ادعو لي ابني لعلي أخبره بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول شيء خلقه من خَلْقه القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب ماذا أكتب؟ قال: القدر»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمن لم يؤمن بالقدر أحرقه الله بالنار»(٣)(٤).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يومًا فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء

(١) أخرجه مسلم في كتاب «القدر» (٤/ ٢٠٤٤، ٢٦٥٣).
(٢) رواه أبو داود في كتاب «السنة باب في القدر» (٤/ ٢٥٥)، رقم [٤٧٠٠].
(٣) أخرجه ابن وهب في «القدر» (١/ ١٢١).
(٤) انظر: «شفاء العليل».

لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٢].

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك[٣].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان به».

وسئل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن القدر فأجاب شعرًا قائلًا:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حَسَن[٤]

والنصوص في ذلك كثيرة جدًّا فإن النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَى فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه، يقول الدكتور الأشقر حَفِظَهُ اللَّهُ:

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) «القضاء والقدر» للأشقر، «معارج القبول» لحافظ حكمي.

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنصِّ على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجى إلا وقد نصَّ على وجوب الإيمان به، وبدَّع وسفَّه من أنكره وردَّه.

يقول النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: «وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها».

وقال في موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

ويقول ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] اهـ[(١)].

كلُّ شيء بقضاء وقدر، وهذا معتقد أهل الإسلام، أتباع رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بعلم الله وبإذنه وبتقديره.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، جف القلم، رفعت الصحف، قضي الأمر، كتبت المقادير، ﴿لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، «ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك»[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

---

(١) «القضاء والقدر» للأشقر.
(٢) صحيح رواه أحمد وأبو داود.

وفي الحديث: «عجبًا لأمر المؤمن!! فإن أمره كله له خير، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»[1].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إذا سألتَ فسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّتِ الصحف» [صحيح رواه أحمد والترمذي].

وفي الحديث الصحيح أيضًا: «واعلمْ أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» [رواه أحمد وأبو داود].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «جفَّ القلم يا أبا هريرة بما أنت لاقٍ».
[رواه البخاري]

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قلْ: قدَّر الله وما شاء فعل».
[رواه مسلم]

وفي حديث صحيح عنه ﷺ: «لا يقضي الله قضاءً للعبد إلا كان خيرًا له».
[رواه أحمد]

إن هذه العقيدة إذا رسخت في نفسك وقرَّت في ضميرك صارت البلية عطية، والمحنة منحة، وكل الوقائع جوائز وأوسمة، «ومن يرد الله به خيرًا يُصِب منه»، فلا يصيبك قلق من مرض أو موت قريب، أو خسارة مالية، أو احتراق بيت، فإن الباري قد قدَّر، والقضاء قد حل، والاختيار هكذا، والخيرة لله، والأجر حصل، والذنب كُفِّر.

(١) صحيح رواه مسلم.

هنيئًا لأهل المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذ، المعطي، القابض، الباسط ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولن تهدأ أعصابك، وتسكن بلابل نفسك، وتذهب وساوس صدرك؛ حتى تؤمن بالقضاء والقدر، جف القلم بما أنت لاقٍ، فلا تذهب نفسك حسرات، لا تظن أنه كان بوسعك إيقاف الجدار أن ينهار، وحبس الماء الذي ينسكب، ومنع الريح أن تهب، وحفظ الزجاج أن ينكسر، هذا ليس بصحيح على رغمي ورغمك، وسوف يقع المقدور، وينفذ القضاء، ويحل المكتوب ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

استسلم للقدر قبل أن تطوِّق بجيش من السخط والتذمُّر والعويل، اعترف بالقضاء قبل أن يدهمك سيل الندم، إذًا فليهدأ بالك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذر، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقل: «لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

لا تجزع من المصائب، ولا تكترث بالكوارث، ففي الحديث: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [صحيح رواه الترمذي][(١)].

من فوائد المصائب

استخراج مكنون عبودية الدعاء. قال أحدهم: سبحان مَنِ استخرجَ الدعاء بالبلاء، وذَكَرُوا في الأثر: أن الله ابتلى عبدًا صالحًا من عباده، وقال لملائكته: لأسمعَ صوتَهُ. يعني: بالدعاء والإلحاح.

ومنها: كسر جماح النفس وغَيِّها؛ لأن الله يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

---

(١) «لا تحزن» القرني.

ومنها: عطف الناس وحبُّهم ودعاؤهم للمصاب؛ فإن الناس يتضامنون ويتعاطفون مع من أصيب ومن ابتُلي.

ومنها: صرف ما هو أعظم من تلك المصيبة؛ فإنها صغيرة بالنسبة لأكبر منها، ثم هي كفَّارة للذنوب والخطايا، وأجرٌ عند الله ومثوبة. فإذا علم العبد أن هذه ثمار المصيبة أنِسَ بها وارتاح، ولم ينزعج ويَقْنط ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومنها: معرفة قدر نعمة العافية؛ فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها، فلا يعرف نعمة العافية إلا من ذاق مرارة المرض.

أن الله قد يحيي قلبك بهذا البلاء:

وهذا أمرٌ نشاهده كثيرًا.. فقد يكون العبد بعيدًا عن طاعة الله جَلَّ وَعَلَا فإذا سلَّط الله عليه البلاء عاد العبد إلى ربه وقام لينفض غبار الغفلة ويرفع يديه بالدعاء والإنابة والتوبة.. وإذا به يصبح عابدًا صائمًا قائمًا، بل وقد يصبح داعية إلى الله جَلَّ وَعَلَا. وقد يحيي الله قلب عبدٍ بموت عبدٍ آخر[1].

إيقاظ العبد من غفلته:

فكم من عبدٍ كان تائهًا شاردًا لم يسجد لله سجدة واحدة وإذا به لما مرض تذكَّر ربه ومولاه فترك الذنوب والمعاصي، وأقبل على ربه بالتوبة والاستغفار والندم على عمره الذي مضى، وفتح صفحة جديدة كلها طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

أخي الحبيب.. إن المرض يريك فقرك وحاجتك إلى الله، وأنه لا غنى عنه طرفة عين، فيتعلق قلبك بالله وتقبل عليه بعد أن كنت غافلًا عنه، فيكون البلاء حينئذٍ خيرًا لك من النعمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مصيبة تُقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله».

---

(١) «السلسلة الذهبية» للمصري.

صحة وطهارة القلوب والأرواح:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «انتفاع القلب والروح بالآلام والأمراض أمر لا يحسّ به إلا من فيه حياة، فصحة القلوب والأرواح موقوفة على آلام الأبدان ومشاقِّها».

وقال في موضع آخر: «لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حامية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من البلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقَّاه وصفَّاه أهَّلَه لأشرف مراتب أهل الدنيا وهي عبوديته وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه.

قد يكون الخير كله في هذا المرض:

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذه الآية عدة حِكَم وأسرار ومصالح للعبد؛ فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرَّة من جانب المضرَّة لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد».

ومشهد القضاء: وهي أن تعلم أنه ما آذاك إلا بقضاء من الله وقدر؛ فإن العبد سبب من الأسباب، وأن المقدِّر والقاضي هو الله، فتسلِّم وتُذْعن لمولاك.

وقد حكى ابن أبي الدنيا عن شُريح أنه قال: «إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره: إذ لم تكن أعظم مما هي، وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني».

أن تعلم بأن المصائب تخلِّص العبد من الكبر والعجب:

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محنُ الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

فمن كمال رحمة الله أن يبتلي العبد ليشعر العبد بأنه عبدٌ وأنه يستمد عزته من التذلل لله جل وعلا ويستمد قوته من اللجوء والتوكل على الله ويستمد أسباب حياته كلها من افتقاره إلى الملك جل وعلا.

قد يكون الخير كله في تلك المصائب:

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى في حديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن المعصية: هل هي خير للعبد؟ قال: نعم بشرطها من الندم والتوبة، والاستغفار والانكسار.

ذكر بعض أهل العلم: أن الذنب كالختم على العبد، ومن أسرارها بعد التوبة: قصم ظهر العُجب، وكثرة الاستغفار والتوبة والإنابة والتَّوجُّه والانكسار والندامة، ووقوع القضاء والقدر، والتَّسليم بعبوديةِ مُقابَلَةِ القضاء والقدر.

ومنها: تحقُّق أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى مثل: الرحيم والغفور والتَّوَّاب.

إذن فلا تجزع من الألم، ولا تخف من المعاناة، فربما كانت قوة لك ومتاعًا إلى حين.

فالألم ليس مذمومًا دائمًا، ولا مكروهًا أبدًا، فقد يكون خيرًا للعبد أن يتألَّم.

إن الدعاء الحارَّ يأتي مع الألم، والتسبيح الصادق يصاحب الألم.

لَعَمْرُكَ ما يدري الفتى كيف يَتَّقي ... نوائب هذا الدَّهرِ أم كيف يَحْذَرُ

يرى الشيءَ مما يُتَّقى فيَخافُه ... وما لا يَرى مما يَقِي اللهُ أكْبَرُ

كلَّما ترفَّه الجسم تعقدتِ الروح، والقِلَّة فيها السلامة، والزهد في الدنيا راحة عاجلة يقدِّمها الله لمن شاء من عباده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠].

قال أحدهم:

ماءٌ وخبزٌ وظلٌّ ... ذاكَ النعيمُ الأجلُّ

كفرتُ نعمةَ ربِّي ... إنْ قلتُ إني مُقِلُّ

ما هي الدنيا إلا ماء بارد، وخبز دافئ، وظل وارف!!

أن تعلم بأن البلاء قد يرفعك في درجات الجنة:

قال ﷺ: «إنَّ الرجل ليكون له المنزلةُ عند الله فما يبلغها بعملٍ، فلا يزالُ اللهُ يبتليه بما يكرهُ حتى يبلِّغه إياها»[1].

(١) رواه أحمد، وأبو يعلى، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٤٣٠٠].

فقد يكون عملك الصالح لا يبلغك تلك الدرجة في الجنة.. والله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يرفعك إلى تلك الدرجة في الجنة فيبتليك ليرفع درجتك في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال تعالى: إذا ابتليتُ عبدًا من عبادي مؤمنًا فحمدني وصبر على ما بليته؛ فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمهُ من الخطايا، ويقول الربُّ عَزَّوَجَلَّ للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته، فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر، وهو صحيح»[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عُوَّاده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل»[2].

أن تتذكر ما في البلاء من اللطائف والفوائد:

ومن بين تلك الفوائد التي يجنيها العبد من البلاء: تذكير العبد بذنوبه فربما تاب منها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال بعض السلف: «إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له».

هي المقاديرُ فلُمني أو فذَر ... تجري المقاديرُ على غرزِ الإبر

قال ابن القيم في «شفاء العليل»:

فأخبر أن ألم القتل والجراح في سبيله تمحيص، أي: تطهير وتصفية للمؤمنين، وبشر الصابرين على ألم الجوع والخوف والفقر وفقد الأحباب وغيرهم بصلاته ورحمته وهدايته، وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٤٣٠١].
(٢) رواه أبو نعيم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٣٩٨٥].

قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله جاءت قاصمة الظهر، وإننا لم نعمل سوءًا، فقال: «يا أبا بكر ألست تَنْصَب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك الأذى؟» قال: بلى، قال: «فذلك مما تجزون به»[١]، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾. [الشورى: ٣٠]

وفي هذا تبشير وتحذير؛ إذ أعلمنا أن مصائب الدنيا عقوبات لذنوبنا، وهو أرحم من أن يثنِّي العقوبة على عبده بذنب قد عاقبه به في الدنيا، كما قال ﷺ: «من بُلي بشيء من هذه القاذورات فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. ومن عوقب به في الدنيا فالله أكرم من أن يثني العقوبة على عبده»[٢]. وفي الحديث: «الحدود كفَّارات لأهلها»[٣]. وفي الصحيحين من حديث عبادة رضي الله عنه: «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له»[٤]. وفي الصحيح عنه ﷺ: «وما أصاب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[٥]. وقال: «لا يزال البلاء بالمؤمن في أهله وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[٦]. وفي حديث آخر: «إن المؤمن إذا مرض خرج مثل البردة في صفائها ولونها»[٧]. وفي الحديث الآخر: «إن الحمى تنفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»[٨]. وفي حديث آخر: «لا تَسُبِّي الحُمَّى فإنها تذهب خطايا بني آدم»[٩]. ومن أسماء الحمى: مكفِّرة الذنوب. وفي الحديث الصحيح: «يقول الله عز وجل يوم القيامة:

(١) صحيح أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧/ ١٨٩) حديث رقم (٢٩٢٦).
(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٢٥) حديث رقم (١٥٠٨).
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان في «صحيحه».
(٧) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي.
(٨) أخرجه ابن ماجه.
(٩) صحيح، وأخرجه مسلم.

عبدي مرضت فلم تعدني. قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده. أما لو عدته لوجدتني عنده»[(١)].

وهذا أبلغ من قوله في الإطعام والإسقاء: «لوجدت ذلك عندي»، فهو سبحانه عند المبتلَى بالمرض رحمة منه له وخيرًا وقربًا منه لكسر قلبه بالمرض؛ فإنه عند المنكسرة قلوبهم. وهذا أكبر من أن يذكر ورب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته ورحمته في الدنيا والآخرة بل ظهور رحمته في الآخرة أعظم. فعذاب المؤمنين بالنار في الآخرة هو من هذا الباب، كعذابهم في الدنيا بالمصائب والحدود، وكذلك حبسهم بين الجنة والنار حتى يهذبوا وينقوا. وقد علم بالنصوص الصحيحة الصريحة أن عذابهم في النار متفاوت قدرًا ووقتًا بحسب ذنوبهم، وأنهم لا يخرجون منها جملة واحدة بل شيئًا بعد شيء حتى يبقى رجل هو آخرهم خروجًا، وكذلك عذاب الكفار فيها متفاوت تفاوتًا عظيمًا، فالمنافقون في دركها الأسفل، وأبو طالب أخف أهلها عذابًا في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه، وآل فرعون في أشد العذاب، قالوا: فإذا كان العذاب في الدار التي فيها رحمة واحدة من مائة رحمة هو رحمة بأهلها ومصلحة لهم ولطف بهم في الدار التي يظهر فيها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض. وقد قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

فأخبر أنه يعذبهم رحمة بهم ليردهم العذاب إليه كما يعذِّب الأب الشفيق ولده إذا فرَّ منه إلى عدوه ليرجع إلى بره وكرامته، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] اهـ.

---

(١) صحيح، وأخرجه مسلم.

الإيمان بالقضاء والقدر
وأثره في السلوك

إن الإيمان هو النعمة العظيمة التي إذا وهبها الله عبدًا من عباده يسَّر له بها سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، فإذا ضاقت عليه الدنيا وأحاط به أعداؤه وأعداء دينه من كل جانب، وجد في هذا الضيق أوسع السعة.

فالإيمان - والإيمان بالقضاء والقدر خصوصًا - من أعظم أسباب النعمة التي يوسع الله عَزَّوَجَلَّ بها على المؤمنين الضيق ويهون عليهم كل مصيبة ويحميهم من أمراض الأسى والحزن؛ وذلك لأن المؤمن يستشعر قوته بالله عَزَّوَجَلَّ حين يستحضر أن القوة لله جميعًا، وأن الأمر أمره، وأنه خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء بقدر، وبذلك يتغير سلوكه في معاملة الواقع تغيرًا جذريًا[1].

(١) «الإيمان بالقضاء والقدر» د/ ياسر برهامي.